4. التجريبية

يعتبر التيار التجريبي ، التيار الفكري الثاني الكبير الذي انتجته فلسفة الحداثة ، وهو يمثل مع التيار العقلاني قطبا الحداثة بامتياز.

يسمى أيضا بالتيار الامبيريقي ، او التيار العلمي ، او التيار الحسي ، وهو مرتبط بتطور المنهج العلمي والنزعة الحسية المادية، وصحيح أن هذا التجريبية هي تيار فكري حداثي بامتياز الا انه له جذورا في الفكر القديم، فنجد أصوله عن ارسطو في الفلسفة اليونانية، وكذا نجد ارهاصاته في الفكر الاسلامي كما هو الحال عند ابن الهيثم على سبيل المثال، كما أن تطورات المنطق الاسمي في القرون الوسطى كان له اثر بارز في ميلاد التيار التجريبي الحديث.

يشير مفهوم «التجريبية» إلى مجموعة من النظريات الفلسفية التي تعتبر التجربة الحسية مصدر كل معرفة أو اعتقاد وكل متعة جمالية. وتتعارض التجريبية بشكل خاص مع العقلانية، التي ترى أننا نمتلك معارف أو أفكارًا فطرية تكون قبلية وسابقة للتجربة والملاحظة.

صعدت التجريبية كبديل عن المنطق الصوري والفكر المدرسي الذي ساد في القرون الوسطى، وصاغ أهم مبادئها الانجليزي فرنسيس بيكون في كتاب "الاورغانون الجديد"التجريبية، و"جون لوك" صاحب فكرة أن العقل صفحة بيضاء، وكوندياك، وجورج بيركلي، وديفيد هيوم، وغيرهم...

تعتبر التجريبية أن الحواس هي مصدر المعرفة، وأن ادراك المعارف يقوم على تراكم الملاحظات والحقائق القابلة للقياس، والتي يمكن استخلاص قوانين عامة منها عن طريق الاستقراء (المنهج العلمي)، وبالتالي الانتقال من الجزء من الكل ، أي من الملاحظة نحو القانون العلمي.

أهم نظريات التيار التجريبي :

فرانسيس بيكون (1561-1626) : مفكر وفيلسوف بريطاني، مؤسس النزعة التجريبية الحديثة، أحدث ثورة في المنهج العلمي عبر كتابه "الأورجانون الجديد"، حيث رفض المنطق الأرسطي (الاورغانون)، معتبرا أن القياس الصوري القديم لا يكشف عن حقائق جديدة، بينما التجربة هي المصدر الوحيد للمعرفة. ولهذا دعا الى تطبيق المنهج الاستقرائي (Inductive Method) بدلاً من الاستنتاج المنطقي الصوري، الذي لا ينتج جديدا، لانه ينطلق من الكل الى الجزء. وبالتالي دعا بيكون إلى الانتقال من الملاحظات الجزئية والظواهر الخاصة إلى التعميمات والقواعد العامة.

صاغ بيكون منهجاً استقرائياً (المنهج التجريبي) يقوم على الملاحظة الدقيقة، والتجربة العملية، وتطهير العقل من الأوهام (الأصنام الأربعة) للوصول إلى القوانين العلمية وتفسير الطبيعة بغية تحقيق منفعة البشر.

رأى بيكون أن التفكير الانساني يكون ضحية أربعة أوهام كبرى يجب تحرير العقل منها ليتمكن من فهم الواقع، وهذا ما يمثل جانب الهدم في منهجه:

- أوهام الجنس: أخطاء فطرية مشتركة بين البشر (قصور الحواس).

- أوهام الكهف: أخطاء ناتجة عن احكام شخصية تتكون لدى الفرد في محيطه من تربية واطار جغرافي واجتماعي وسياسي .

- أوهام السوق: أخطاء ناتجة عن استخدام لغة غير دقيقة في التعاملات.

- أوهام المسرح: أخطاء ناتجة عن تصديق نظريات فلسفية ودينية وسياسية قديمة خاطئة. بحيث يكون الفرد متلقيا سلبيا لخطابات صناع المعنى التقليديين. مثلما يكون الحظور في المسرح أمام ابطال المسرحية.

الجانب الايجابي في منهج بيكون هو الدعوة لبناء منطق جديد، القائم على المنهج الاستقرائي او العلمي. وخطوات البحث العلمي: تعتمد على الملاحظة، الفرضية، التجريب (تنويع وتكرار التجارب)، ثم استخلاص النتائج.

- **جون لوك (1632 - 1704):** أشهر فلاسفة التجريبية ، وهو ايضا بريطاني ، ونظريته تعتبر أشهر واهم نظرية في تيار التجريبية في الفلسفة الحديثة، واقد اشتهر بتوظيفه لنظرية الصفحة البيضاء في وصف العقل البشري لانكار الأفكار الفطرية الحجر المؤسس لنظريات التيار العقلاني.

نظرية "الصفحة البيضاء" (Tabula Rasa) هي مفهوم فلسفي، أبرزه الفيلسوف جون لوك في القرن السابع عشر، تنص على أن الإنسان يولد وعقله "لوح فارغ" أو صفحة بيضاء لا تحمل أي معرفة فطرية أو أفكار مسبقة. وتعتبر التجربة والتعلم هما المصدر الوحيد لتشكيل المعرفة والشخصية، حيث يمتلئ هذا العقل عبر الخبرات الحسية. وهذا ما يعني :

غياب الفطرية: يرفض جون لوك وجود أفكار فطرية، معتقداً أن العقل يولد خاليًا من أي معرفة قبلية.

دور التجربة: المعرفة تُكتسب فقط عن طريق التجربة والإدراك الحسي.

أهمية التربية واالتعلم: الفكرة تمنح البيئة والتنشئة الاجتماعية دوراً أساسياً في صياغة شخصية الفرد وقدراته

- **هيوم ومشكلة الاستقراء :** رأى ديفيد هيوم أن المبادئ المؤسسة التي يقوم عليها المنهج التجريبي ، أي السببية والحتمية هي أساسها غير تجريبية، بل انها مبادئ قبلية عقلية.

بالرغم من ذلك يُعد ديفيد هيوم (1711-1776) فيلسوفاً تجريبياً، شكك في مبدأ السببية والحتمية، معتبراً إياها نتاجاً لـ العادة والتعاقب النفسي لا لضرورة عقلية أو حتمية طبيعية.

جادل هيوم بأننا نرى تعاقب الحوادث (مثل حرارة ثم تبخر) ولكن لا نرى "القوة" الرابطة بينها، فالعلاقة السببية ذاتية في الذهن وليست موضوعية في الأشياء.

فالسببية عادة ذهنية تنشأ من تكرار مشاهدة حدثين متتاليين (تعاقب)، مما يولد في النفس عادة تتوقع تكرار النتيجة عند تكرار السبب

كما يرى هيوم أنه لا توجد "حتمية" منطقية تربط السبب بالنتيجة، وأنه يمكن تصور حدوث السبب دون النتيجة. فالسببية والحتمية ليست مستمدة من العقل أو البرهان الرياضي، بل من الخبرة والتجربة، لذا فهي احتمالية وليست يقينية. مبنية على مبدأ ما الفناه أنه كذلك، وبما أن السببية مبنية على العادة وليس على حقيقة موضوعية، فإن الحتمية الصارمة (أن نفس الأسباب تؤدي دائماً لنفس النتائج) هي اعتقاد لا يمكن إثباته

جون ستوارت ميل وحل مشكلة الاستقراء :

حاول جون ستيوارت ميل حل "مشكلة الاستقراء" التي اثارها هيوم ، من أجل التأكيد على صحة المنهج التجريبي ، وذلك عبر تأسيسه على مبدأ "اطراد الطبيعة". حيث يرى ميل أن الاستقراء ليس مجرد تجميع، بل هو اكتشاف للعلاقات السببية بين الظواهر.وفي هدا السياق وضع ميل خمس طرق استقرائية (الاتفاق، الاختلاف، الجمع بينهما، البواقي، التغير المصاحب)، مبرراً أن جميع المعارف، بما فيها المبادئ العقلية والرياضية، مستمدة من التجربة والاستقراء، ويتجلى ذلك من خلال قواعد الاستدلال التجريبي ، التي وضعها كأدوات منهجية لتحقيق اليقين العلمي:

- طريقة الاتفاق: إذا اتفقت حالتان أو أكثر للظاهرة في عامل واحد، فهذا العامل هو السبب.
- طريقة الاختلاف: إذا كانت الحالة التي تحدث فيها الظاهرة والحالة التي لا تحدث فيها تتشابهان في كل شيء عدا عامل واحد، فإن هذا العامل هو السبب.

- الطريقة المشتركة (للجمع بينهما): تعزز الاتفاق والاختلاف للوصول لنتائج أدق.
- طريقة التغيرات المصاحبة: أي ظاهرة تتغير بتغير ظاهرة أخرى هي علة لها أو معلولة.

5. المادية

النزعة المادية هي النقيض الطبيعي للنزعة العقلية، فاذا قسم العقلانيون الكلاسيكيون وعلى رأسهم أفلاطون العالم الى مادة وروح ، أو مادة وعقل ، أو مادة وفكرة ، فان المادية تمثل هنا العالم الواقعي الذي ندركه بالحواس والمعرفة المباشرة، على النقيض من مختلف أشكال العقلانية التي تبدأ من الفكرة الى الواقع، فإن النزعة المادية تبدأ من المادة الى الفكرة.

وعليه، فالمادية هي مذهب فلسفي يؤكد أن المادة هي مصدر المعرفة الوحيد المدرك بواسطة الحواس، وأن العقل والوعي ما هما إلا نتاجان للدماغ. وهي تتعارض مع المثالية والروحانية برفضها لأي جوهر غير مادي أو إلهي. مع ملاحظة أن مفهوم المادية في اللغة العامية، تشير عادة إلى التعلق المفرط بالممتلكات المادية.

أما المادية كتيار فكري فهي تقول بالواقع مادي البحت، الذي يخضع لقوانين موضوعية يمكن للعلم اكتشافها. ويُنظر إلى الفكر على أنه وظيفة من وظائف الدماغ، وليس كيانًا مستقلًا.

غالبا ما تتداخل المادية مع تيار التجريبية، لأن كلاهما يجعل من الحواس وسيلة المعرفة والادراك، ومن الواقع والطبيعة مصدر المعرفة. وباعتباره نظامًا فلسفيًا، ينتمي المادية إلى فئة الأنطولوجيات الأحادية، وتعود جذور هذا التيار الفكري إلى الفكر ما قبل السقراطي — على الرغم من أنه لم يُصاغ بهذه الصيغة قبل القرن الثامن عشر. وهي تقبل تفسيرات متعددة، سواء كانت طبيعية أو تاريخية. يُربط أحيانًا بالاختزالية، وأحيانًا بالواقعية أو الميكانيكية، ويُستخدم كسلاح جدلي من قبل الفلاسفة الذين عارضوا المثالية، التي كانت لا تزال سائدة في الفلسفة حتى نهاية القرن التاسع عشر. وأشهر من قام بتبني هذا التيار الفكري منهجا وتصورا هي الماركسية التي انطلقت من تأويلات النزعة المادية لفيورباخ، وقبل المنهج الجدلي المثالي الهيجلي الى منهج جدلي مادي.

يعد الانجليزي توماس هوبز أشهر فلاسفة الحداثة القائلين بالنزعة المادية، بحيث تمثل فلسفة النزعة المادية في أبعادها المعرفية والاخلاقية والسياسية.

يضم التيار المادي عدة نظريات ومذاهب أبرزها:

- النظرية الوضعية
- الفلسفات المادية : فلسفة توماس هوبز
- النظرية النفعية
- نظرية التطور
- الماركسية

الركائز الأساسية للفكر المادي:

- **أولوية المادة** :الوجود المادي يسبق الوعي والفكر.
- **التفسير المادي** : تفسير كل الظواهر، بالمادة كبعد واحد، وفق أسباب طبيعية وعلمية.